القسم الرابع فى العلم والدين ومستقبل الإسلام والمسلمين

الجمود علة تزول

المقال الخامس لذلك الإمام الحكيم وفيه بيان علاج الداء

تفصيل مضرات هذا الجمود وسيئاته يحتاج إلى كتاب طويل فنكتفى بما أوجزناه فى الصفحات السابقة. ولكن يبقى الكلام فى أنه عارض يمكن زواله إن شاء الله تعالى.

قد عرفت من طبيعة الدين الإسلامى بعد عرضها عليك فيما سبق أنها تسمو عن أن ينسب إليها هذا المرض الخبيث - مرض الجمود على الموجود - وكم فى الكتاب من آية تُنَفِّر من اتباع الآباء مهما عظم أمرهم بدون استعمال العقل فيما كانوا عليه ولا حاجة إلى إعادة ذلك. ثم إننا أشرنا أيضًا إلى بعض الأسباب التى جلبت هذا الجمود على المسلمين لا على الإسلام. وأن محدثها إما عدوٌّ للمسلمين طالب لخفض شأنهم أو لاستعبادهم ولاستغلال أيديهم لخاصة نفسه. وإما محب جاهل يظن

خيرًا ويعمل شرًا وهذا الثانى كان أشد نكاية، وأعون على الغواية، وهل تزول هذه العلة ويرجع الإسلام إلى سعته الأولى وكرمه الفياض وينهض بأهله إلى ما ذخر لهم فيه؟؟

جاء فى الكتاب المبين ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ سورة الحجر آية ٩، ذلك الذكر هو الذكر الحكيم وهو القرآن الذى أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير. وهو كما قال: ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ سورة فصلت آية ٣، وعد الله بحفظ هذا الكتاب وقد أنجز وعده فلم تطل إليه يد عدو مقاتل ولا يد محب فبقى كما نزل، ولا يضره عمل الفريقين فى تفسيره وتأويله، فذلك مما لا يلتصق به فهو لا يزال بين دَفَّات المصاحف طاهرًا نقيًّا بريئًا من الاختلاف والاضطراب. وهو إمام المتقين، ومستودع الدين، وإليه المرجع إذا اشتد الأمر وعظم الخطب وسئمت النفوس من التخبط فى الضلالات. ولا يزال لأشعة نوره نفوذ من تلك الحجب التى أقاموها دونه ولا بد أن تتمزق كلها بأيدى أنصاره فيتبلج ضياؤه لأعيُن أوليائه إن شاء الله تعالى.

هذا الضياء كان ولا يزال يلوح لامعه فى حنادس الظلم لأفراد اختصهم الله بسلامة البصيرة فيهتدون به إليه ويحمدون سراهم، بما عرفوا من نجاح مسعاهم، ولكن الذين أطبقت عليهم ظُلَمُ البدع، وران على قلوبهم ما كسبوا من التحزب للشيع، وطَمَسَتْ بصائرهم، وفسدت عقولهم، بما حشوها من الأباطيل، وبما عطلوها عن النظر فى الدليل، هؤلاء فى عمى عن نوره وقلوبهم فى أكنَّة أن يفقهوه وفى آذانهم وقر. يصيحون بأنهم عُمْى صمٌ فلا يرون له سناء، ولا يسمعون له نداء، ويعدون ذلك من كمال

الإيمان به ولبئس ما رضوا لأنفسهم من السفه وطيش الحلم وهم يعلمون. هـذا حال الجمهور الأعظم ممن يوصفون بأنهم مسـلمون ويجلبون العار على الإسـلام بدخولهم تحت عنوانـه، ويقوُّون حجج أعدائه فى حربه بزعمهم الاجتماع تحت لوائه، وما هم منه فى شىء كما قدمنا.

هؤلاء لا بد أن يصيبهم ما أصاب الأمم قبلهم فقد اتبعوا سـننهم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع وضيقوا على أنفسهم بدخولهم فى جحر الضب الذى دخلوه[1] ومن اتبع سنن قوم استحق الوقوع تحت أحكام سُنن الله فيهم فلن يخلص مما قضى الله فى عذابهم. فقد قص عليهم سير الأولين وبَيَّنَ لهم ما نزل بهم عندما انحرفوا عن سننه وحادوا عن شرعه ونبذوا كتابه وراءهم ظِهريًّا. أَحَلَّ بهم الذلَّ، وَضَرَبَ عليهم المسـكنةَ، وأَوْرَثَ غَيْرَهم أَرْضَهم وديارهم. فهل ينتظر المتبعون سـننهم. السائرون على أثرهم أن يصنع الله بهم غير الذى صنع بسـابقيهم وقد قضى بأن تلك سـنته ولن تجد لسنته تبديلاً.

لا تزال الشـدائد تنزل بهولاء المنتسبين إلى الإسلام، ولا تزال القوارع تحل بديارهم حتى يفيقوا (وقد بدأوا يفيقون من سـكراتهم) ويفزعوا إلى طلب النجاة ويغسـلوا قَذَى المُحْدَثات عن بصائرهم، وعند ذلك يجدون هذا الكتاب الكريم فى انتظارهم يُعِدُّ لَهُمْ وسـائل الخلاص ويؤيدهم فى سبيله بروح القدس ويسير بهم إلى منابع العلم. فيغترفون منها ما يشاءون فيعرفون أنفسـهم ويشهدون ما كان قد كمن فيها من قوة فيأخذ بعضهم بيد بعض ويسـيرون إلى المجد غير ناكلـين ولا مخذولين. ولهذا أقول:

(١) المنار: فى الكلام إشارة إلى حديث: (لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعًا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه) الحديث رواه الشيخان وغيرهما..

إن الإسلام لن يقف عثرة فى سبيل المدنية أبدًا ولكنه سيهذبها وينقيها من أوضارها، وستكون المدنية من أقوى أنصاره متى عرفته وعرفها أهله. وهذا الجمود سيزول وأقوى دليل على زواله بقاء الكتاب شاهدًا عليه بسوء حاله ولطف الله بتقييض أناس للكتاب ينصرونه، ويدعون إليه ويؤيدونه، والحوادث تساعدهم، وسوط عذاب الله النازل بالجامدين ينصرهم، هذا الكتاب المجيد الذى كان يتبعه العلم حيثما سار شرقًا وغربًا لا بد أن يعود نوره إلى الظهور ويمزق حجب هذه الضلالات، ويرجع إلى موطنه الأول من قلوب المسلمين ويأوى إليها. العلم يتبعه وهو خليله الذى لا يأنس إلا إليه ولا يعتمد إلا عليه.

يقول أولئك الجامدون الخامدون كما يقول بعض أعداء القرآن: إن الزمان قد أقبل على آخره، وإن الساعة أوشكت أن تقوم، وإن ما وقع فيه الناس من الفساد، وما مُنِى به الدين من الكساد، وما عرض عليه من العلل، وما نراه فيه من الخلل، إنما هو أعراض الشيخوخة والهرم، فلا فائدة فى السعى ولا ثمرة للعمل، فلا حركة إلا إلى العدم، ولا يصح أن يمتد بصرنا إلى العدم، ولا أن ننتظر من غاية لأعمالنا سوى العدم (نعوذ بالله)، هؤلاء حَفدة الجهل وأعوان اليأس يهرفون بما لا يعرفون. ماذا عرفوا من الزمان حتى يعرفوا أنه كاد ينقطع عند نهايته؟ إن الذى مضى بيننا وبين مبدأ الإسلام ألف وثلاثمائة وعشرون عامًا، وإنما هى يوم وبعض يوم أو بعض يوم فقط من أيام الله تعالى. وإن آيات الله فى الكون – وإن كانت تدل على أن ما مضى على الخليقة يقدر بالدهور الدهارير، – تشهد بأن ما بقى لهذا النظام العظيم يقصر عن تقديره

كل تقدير ﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ سورة النساء آية ٧٨. إن ما بيننا وبين مبدأ الإسلام لا يزيد عن عمر ستة وعشرين رجلاً كل رجل يعيش خمسين سنة. فهل يعد مثل ذلك دهرًا طويلاً بالنسبة إلى دين عام كدين الإسلام؟ إن زمنًا كهذا لا يكفى - وقد تبين أنه لم يكف - لاهتداء الناس كافة بهديه. ولمَ تقوم القيامة على الدين ولم تقم على شرهم وطمعهم؟

قد وعد الله بأن يتم نوره وبأن يظهره على الدين كله فسار فى سبيل التمام والظهور على العقائد الباطلة أعوامًا، ثم انحرف به أهله عن سبيله وصاروا به إلى ما يرون ونرى. ولن ينقضى العالم حتى يتم ذلك الوعد ويأخذ الدين بيد العلم ويتعاونا معًا على تقويم العقل والوجدان فيدرك العقل مبلغ قوته، ويعرف حدود سلطنته، فيتصرَّف فيما آتاه الله تصرُّف الراشدين، ويكشف ما مكنه فيه من أسرار العاملين، حتى إذا غشيته سبحات الجلال وقف خاشعًا، وقفل راجعًا، وأخذ أَخْذَ الراسخين فى العلم الذين قال فيهم أمير المؤمنين على بن أبى طالب (كرم الله وجهه) فيما روى عنه: (هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب، الإقرارُ بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علمًا، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخًا واعتبر بعد ذلك بقوله: (فاقتصر على ذلك ولا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين. هو القادر الذى إذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع[1] قدرته، وحاول الفكر المبرَّأ من خطرات الوساوس أن يقع عليه فى عميقات

(١) المنقطع: ما ينقطع عند الشىء وهو آخره.

غيـوب ملكوتـه، وتولهت[1] القلـوب إليه لتجرى فـى كيفية صفاته، وغمضـت مداخل العقول فى حيـث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته، ردعها وهى تحوب مهاوى سـدف[2] الغيوب متخلصة إليه سـبحانه، فرجعت إذ جبهت[3] معترفة بأنه لا ينال بجور الاعتساف كنه معرفته، ولا تخطر ببال أولى الرَّويات خاطرة من تقدير جلال عزته).

هنالك يلتقى (أى العقل) مع الوجدان الصادق (القلب) ولم يكن الوجدان ليدابـر العقل فى سـيره داخل حدود مملكته متى كان الوجدان سـليمًا، وكان ما اسـتضاء به من نبراس الدين صحيحًا. إياك أن تعتقد ما يعتقده بعض السذج من أن فرقًا بين العقل والوجدان (القلب) فى الوجهة بمقتضى القطـرة والغريـزة. فإنما يقع التخالـف بينهما عرضًا عنـد عروض العلل والأمـراض الروحية على النفوس. وقد أجمع العقلاء على أَنَّ المشـاهدات بالحـس الباطنى (الوجدان أو القلب) من مبادئ البرهان العقلى كوجدانك أنك موجود ووجدانك لسرورك وحزنك وغضبك ولذتك وألمك ونحو ذلك.

مُنحنـا العقل للنظر فى الغايات والأسـباب المسـببات، والفرق بين البسـائط والمركبات، والوجدانَ لإدراك ما يحدث فى النفس والذات من لذائـذ وآلام، وهلع واطمئنان، وشماس وإذعـان، ونحو ذلك مما يذوقه الإنسـان ولا يحصيه البيان، فهما عينان للنفس تنظر بهما - عين تقع على القريب وأخرى تمتد إلى البعيد، وهى فى حاجة إلى كل منهما ولا تنتفـع بإحداهما حتى يتم لها الانتفـاع بالأخرى. فالعلم الصحيح مقوم

(١) تولهت: اشتد عشقها..
(٢) السدف: جمع سدفه كظلمة لفظا ومعنى.
(٣) جُبه: ضربت جبهته ورُدّ.

الوجدان، والوجدان السليم من أشد أعوان العلم، والدين الكامل علم وذوق، عقل وقلب، برهان وإذعان، فكر ووجدان، فإذا اقتصر دين على أحد الأمرين فقد سقطت إحدى قائمتيه وهيهات أن يقوم على الأخرى. ولن يتخالف العقل والوجدان حتى يكون الإنسان الواحد إنسانيين، والوجود الفرد وجودين.

قد يدرك عقلك الضرر فى عمل ولكنك تعمله طوعًا لوجدانك، وربما أيقنت المنفعة فى أمر وأعرضت عنه إجابة لدافع من سريرتك، فتقول: إن هذا يدل على تخالف العقل والوجدان. ولكنى أقول: إن هذه حجة من لا يعرف نفسه ولا غيره. عليك أن ترجع إلى نفسك فتتحقق من أحد الأمرين – إما أن يقينك ليس بيقين وأنه صورة عرضت عليك من قول غيرك فأنت تظنها علمًا وما هى به. وإما أن وجدانك وَهْم تمكن فيك، وعادة رسخت فى مكان القوة منك، وليس بالوجدان الصحيح وإنما هو عادة ورثتها عمن حولك وظنتها شعورًا مَنْبَعُه الغريزة وما هى منه فى شىء.

نتيجة:

لا بد أن ينتهى أمر العالم إلى تآخى العلم والدين، على سنة القرآن والذكر الحكيم، ويأخذ العالمون بمعنى الحديث الذى صح معناه[1]

(١) المنار – قال العراقى: رواه أبو نعيم فى الحلية بالمرفوع منه بإسناد ضعيف ورواه الأصبهانى فى الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه، ورواه الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر وقال: هذا إسناد فيه نظر. قلت فيه الوازع بن نافع متروك وقال الزبيدى فى شرح الإحياء: قلت حديث ابن عمر لفظه (تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله) هكذا رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب التفكر وأبو الشيخ فى العظمة والطبرانى فى الأوسط وابن عدى وابن مردويه والبيهقى وضعفه والأصبهانى وأبو نصر فى الإبانة وقال غريب ورواه أبو الشيخ من حديث ابن عباس: (تفكروا فى الخلق ولا تفكروا فى الخالق=

(تفكـروا فى خلـق الله ولا تَفَكَّروا فـى ذات الله) وعندها يكون الله قد أتم نـوره ولو كره الكافرون[1] وتبعهـم الجامدون القانطون، وليس بينك وبـين ما أعِدكَ بـه إلا الزمان الذى لا بد منه فـى تنبيه الغافل وتعليم الجاهل وتوضيح المنهج، وتقويم الأعوج، وهو ما تقتضيه السـنةً الإلهية فى التدريـج ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ سورة الأحزاب آية ٦٢. ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ ﴾ سـورة المعارج آية ٦-٧. ﴿ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ سـورة محمد آية ٧.. وهو خير الناصرين.

○○○

=فإنكم لا تقدرون قدره) ورواه ابن النجار والرافعى من حديث أبى هريرة (تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله) إلخ وتعدد هذه الروايات واجتماعها يكسـبها قوة والمعنى صحيح كما قال الحافظ السخاوى فى المقاصد.

(١) الكافر: من يرى الدليل فيصد عنه ولا ينظر فيه أو ينظر فيعرف الحق ثم يمارى فيه وينكره عنادًا ا هـ من هامش الأصل.

حرية العلم فى أوروبا الآن ونسبتها إلى الماضى والحاضر فى الإسلام

وهو المقال السادس لذلك الإمام الحكيم

لم يبق علينا من الكلام إلا ما يتعلق بالأمر الرابع مما ذكرته الجامعة[1] وهو (أن تمكن العلم والفلسفة من التغلب على الاضطهاد المسيحى فى أوروبا، وعدم تمكنهما من التغلب على الاضطهاد الإسلامى دليل واقعى على أن النصرانية كانت أكثر تسامحًا مع الفلسفة).

ليس من السهل على أن أعتقد أن أديبًا كصاحب الجامعة يقول هذا القول وهو ناظر إلى الحقيقة بكلتا عينيه مع معرفته بلسان الغربيين واطلاعه على ما كتبوا فى هذه المسألة وهى من أهم المسائل التاريخية. وإنما هى عين الرضا تناولت من حاضر الحال ومما انتهى إليه سير التاريخ ما تناولت ثم أملت على قلبه ما جرى به قلمه.

هل يصح أن تُسمَّى الاستكانة للغالب تسامحًا؟ وهل يُسمَّى العجز مع التطلع للنزاع عند القدرة حلمًا، أم يُسمَّى غلّ الأيدى عن الشر بوسائل القهر كرمًا؟ هل تعد مساكنة جناب البابا لملك إيطاليا فى مدينة واحدة

---

(١) يذكر القراء أن كلام الجامعة بالطعن فى الإسلام كان مبنيًا على أربعة أمور تقدم الرد على ثلاثة منها وفى هذا المقال الرد على الرابع.

واجتماع الكرسيين العظيمين كرسى المملكة الإيطالية والمملكة البابوية فى عاصمة واحدة تسامحًا من قداسة البابا مع الملك؟ أليس الأجدر بالمنصف أن يسمى ذلك تسامحًا من الملك مع البابا؛ لأنه صاحب القوة والجيش والسلطنة، ويمكنه أن يسلب البابا تلك الثمالة التى بقيت له من السلطة الملكية؟ كما أن الأليق به أن يسمى تلك الحالة التى عليها أهل أوربا اليوم من طمأنينة العلم بينهم بجانب الدين تساهلاً من العلم مع الدين لا تسامحًا من الدين مع العلم بعد ما كان بينهما من الحوادث ما كان وبعد غلبة العلم واستيلائه على عرش السلطان فى جميع الممالك ورضاء الدين بأن يكون تابعًا له فى أغلبها.

اقتباس مدنية أوروبا من الإسلام.. وأسباب ظهورها التام

السبب الأول الجمعيات:

كان جلاد بين العلم والدين فى أوربا وتألفت لنصرة العلم جمعيات وأحزاب منها ما اتخذ السرَّ حجابًا له حتى يقوى ومنها ما ابتدأ بالمجاهرة. وكان الدين يظفر بالعلم كما سبق بيانه لكثرة أعوانه وضعف أعوان العلم حتى أشرقت الآداب المحمدية على تلك البلاد من سماء الأندلس وتبع إشراق تلك الآداب واشتغال الناس بها سطوع نور العلم العربى من الجانب الشرقى كما ذكرنا. وقد وجد هذان النوران استعدادًا

من النفوس للاستضاءة بهما فى السبيل التى تؤدى بهما إلى المدنية التى كانا يحملانها. هذا الاستعداد كسبته الأنفس بما ضايقها من غلوّ رؤساء الدين فى استعمال سلطانهم واشتدادهم فى استعباد العقل والوجدان حتى ضاق ذرع الفطرة عن الاحتمال. فأخذ الشعور الإنسانى يتلمّس السبيل إلى الخلاص وإذ لاح له هذان النوران اتخذهما له هداية واستقبلهما بوجهه. وكان بعد ذلك ما كان من تأثُّر الدين لأهل العلم وإحراقهم بالنيران، ونفيهم من الأوطان. ومقاومة رؤساء الدين للحكومات ولأهل الأفكار المستقلة فى أدنى الأشياء وأعلاها حتى إنه عندما شرع ملوك فرنسا فى فرش شوارع باريس بالبلاط على الأسلوب الذى وجدوه فى مدينة قرطبة. وصدر الأمر بمنع تربية الخنازير فى تلك الشوارع أغضب ذلك قسوس القديس أنطوان ونادوا بأن خنازير القديس لا بد أن تمر فى الشوارع على حريتها الأولى. وحصل لذلك شغب عظيم اضطر الحكومة أن تسمح بذلك مع صدور الأمر بأن توضع فى أعناقها أجراس. وقالوا إن الملك فيليب السمين مات بسقطة عن فرسه عندما انزعج الفرس من منظر خنزير وصلصلة الجرس فى عنقه.

لقائل أن يقول: إن القسوس فى ذلك الزمان كان يمكنهم أن يمتنعوا من وضع الأجراس فى أعناق الخنازير. فرضاهم بذلك يعد تسامحًا عظيمًا مع العلم (أو الصناعة) ويسهل علىَّ أن أوافقه على أن مثل هذا الضرب من التسامح فى أجراس الخنازير كان يظهر من حين إلى حين إلا أنه فيما أظن لا يكفى فى تشييد هذه المدنية التى يفتخر بها الأوربيون اليوم ونحن لا نبخسها قدرها كذلك.

السبب الثانى الضغط الدينى:

شـدة الحاجة وغلوُّ الرؤساء كانا يوقدان الغيرة فى قلوب طلاب العلوم فلـم تفتر لهم همة فعظم أمرهم واكتشـفوا كثيرًا من الحقائق التى نفعت العامـة، وتنبهت العقول للأخذ بما يهدون عليه وصارت الحرب بينهم وبين رؤساء الدين سجالاً إلى أنْ ظهر دعاة الإصلاح الدينى (البروتستانت) فانضم دعاة العلم إليهم ظنًّا منهم أن سيكونون معهم من المجاهدين فى سبيل العلم. وكان منهم إيراسم الشهير فلما انتصر طلاب الإصلاح ودالت لهـم دولة اسـتمروا يعاقبون بالموت على الأفـكار التى تخالف ظاهر ما يعتقدون كما تقدم. فانفصل إيراسم ومن معه من حماة الحرية واستقلال الإرادة الشـخصية. وترك المصلحين يتفرقون شيعًا ويقتل بعضهم بعضًا وقال: ما كنت أظن أن دعاة الإصلاح يكونون كذلك أعداء العلم.

هـذه الطوائف التـى تفرقت عقائدهـا فى الإصـلاح لم تنتظر إلا أن تأمن عدوها العامَّ وهو الكنيسـة الكاثوليكيـة الرومانية فلما أمنتها أخذ بعضهـا يصول على بعض واشـتعلت نيران الحـروب بينهم. قال أحد أفاضـل مؤرخيهم: (وكلمـا ارتفعت طائفة منهم إلى عـرش القوة لوثت يديهـا بالجرائم فى العمل لإفناء البقية حتى سـئمت النفوس دوام تلك الحـال. ووجدت من توالى حوادث الانتقام وظهور مضارّه فى كل طائفة أن الأفضل لكل طائفة أن تمنح الأخرى من الحرية ما لا تسـتغنى عنه واحدة منها. والعلم كان يعمل عمله فى كشـف الحقائق وترقية الآداب وكان من أقوى المنبهات إلى مضار الحروب ومفاسـد العدوان على حرية الأشـخاص من أى طائفة كانت. من هذا نشـأ ذلك الأصل العظيم أصل

التسامح والرضى بمجاورة المخالف فى الرأى. نشأ من القهر والقسوة التى كانت كل طائفة تعامل بها الأخرى) انتهى كلام المؤرخ بالمعنى.

السبب الثالث الثورة:

ولا حاجة بى إلى ذكر ما جاءت به الثورة الفرنسية وكيف كانت قيامتها على الدين ورؤسائه مما هو معلوم. وإنما أنبه القارئ إلى الاعتبار بما تقدم من القول. وبما يمكنه أن يقف عليه فى كتب القوم. ليعلم أن الدين المسيحى فى أوربا لم يحتمل العلم فضلاً وكرمًا وإنما قويت عليه أحزاب العلم فساموه استكانة وخضوعًا. ولو شاء أن لا يحتمل لم يستطع إلى ذلك سبيلاً.

السبب الرابع ترك المسيحية:

رؤساء الدين المسيحى رجال ذوو عزيمة وإقدام قلما يدانيهم فيها رؤساء دين من الأديان. وهم مع غلوهم فى الدين واشتدادهم فى استعمال سلطانهم على النفوس كانوا ولا يزالون يتخذون كل وسيلة لتأييد دينهم. وهم أشد الناس حرصًا على تقويم أركانه ودفع الشبه عنه ولم يزدهم العلم الجديد إلا وسائل وسبلاً لترويج عقائده وآدابه. ولم تفتر لهم همة فى نشره وتزيينه للقلوب. ومع ذلك كله نرى أن رجال العلم وحماة المدنية يتسللون منه. والعامة من الشعوب فى تخاذل عنه. والأمة الفرنسية التى كانت تدعى بنت الكنيسة أصبحت من أشد الناس عليه. ورأت فلسفتها أن تحدّد حرية أهل الدين فى تعاليمهم واجتماعهم. كل ذلك ومدارس اللاهوت لا تزال عامرة وطلاب اللاهوت يعدّون بالألوف. كل ذلك وكثير من الدول ترى من مزاياها حماية الدين

المسيحى فى أقطار الأرض. قال أحد رؤساء البروتستانت فى خطبة من خطبه التى ألقاها فى بعض البلاد الفرنسية سنة ١٩٠١ بعد كلام له فى أن المسيحية رومانية أو بروتستانية فقدت خاصتها الدينية كما فقدت فائدتها الاجتماعية ما نصه مترجمًا: "إذا كان الدين المسيحى ليس شيئًا سوى الكثلكة المحتاجة إلى الإصلاح (المذهب الرومانى) أو الكثلكة التى دخلها الإصلاح بالفعل (المذهب البروتستانتى) فالقرن الموفى للعشرين (القرن الحاضر) لا يكون مسيحيًّا أبدًا".

وقد جاء فى كلام هذا الخطيب بأنه يريد أن يطلب للمسيحية معنًى آخر ينطبق كل الانطباق على اعتقاد المسلمين فيها. فإن وفَّق للنجاح فى سعيه زال الخلاف – إن شاء الله – بين الدين والعلم. بل بين المسيحية والإسلام.

○○○

عَوْدٌ إلى سماحة الإسلام

آخذ بيد القارئ الآن. وأرجع به إلى ما مضى من الزمان. وأقف به وقفة بين يدى خلفاء بنى أمية والأئمة من بنى العباس ووزرائهم والفقهاء والمتكلمين والمحدثين والأئمة المجتهدين من حولهم. والأدباء والمؤرخين والأطباء والفلكيين والرياضيين والجغرافيين والطبيعيين وسائر أهل النظر من كل قبيل مطيفون بهم. وكلٌّ مقبل على عمله فإذا فرغ عامل من العمل أقبل على أخيه ووضع يده فى يده يصافح الفقيهُ المتكلمَ

والمحـدثُ الطبيبَ والمجتهدُ الرياضيَّ والحَكيم. وكلٌّ يرى فى صاحبه عونًـا علـى ما يشـتغل هو به. وهكـذا أدخل به بيتًا مـن بيوت العلم فأجد جميع هؤلاء سـواء فى ذلك البيت يتحادثون ويتباحثون. والإمام البخارى حافظ السـنة بين يدى عمـران بن حطان الخارجى يأخذ عنه الحديث وعمرو ابن عبيد رئيس المعتزلة بين يدى الحسن البصرى شيخ السـنة من التابعين يتلقى عنه وقد سئل الحسن عنه فقال للسائل: (لقد سـألت عن رجل كأن الملائكة أدَبته وكأن الأنبياء ربته إن قام بأمر قعد به. وإن قعد بأمر قام به. وإن أمر بشـيء كان ألزم الناس له وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له. ما رأيت ظاهرًا أشبه بباطن منه ولا باطنًا أشـبه بظاهر منه بل أرفع بصرى فأجد الإمام أبا حنيفة أمام الإمام زيد بـن على (صاحب مذهب الزيدية من الشـيعة) يتعلم منه أصول العقائد والفقـه ولا يجد أحدهـم من الآخر إلا ما يجد صاحب الرأى فى حادثة ممن ينازعه فيه اجتهادًا فى بيان المصلحة وهما من أهل بيت واحد أمْرُّ بـه بين تلك الصفوف التى كانـت تختلف وجهتها فى الطلب وغايتها واحدة وهى العلم وعقيدة كل واحد منهم أنَّ فكر سـاعة خير من عبادة ستين سنة كما ورد فى بعض الأحاديث[1].

الخلفاء أئمة فى الدين مجتهدون وبأيديهم القوة وتحت أمرهم الجيش. والفقهاء والمحدثون والمتكلمون والأئمة المجتهدون الآخرون هم قادة أهل

---

(١) المنار: رواه أبو الشيخ ابن حبان فى العظمة عن أبى هريرة بسـند ضعيف ورواه من طريقـه ابن الجوزى فـى الموضوعات ولكن له روايات أخرى منها رواية الديلمى فى مسـند الفردوس عن أنس بلفظ (ثمانين سنة) وفى رواية موقوفة على ابن عباس (خير من قيام ليله) ولشهرة هذا المعنى قال الغزالى: وردت السنة بكذا.

الديـن ومن جند الخلفاء. الدين فى قوته. والعقيدة فى أوج سـلطانها. وسـائر العلماء ممن ذكرنا بعدهم يتمتعون فى أكنافهم بالخير والسـعادة ورفـه العيش وحرية الفكر لا فـرق فى ذلك بين من كان من دينهم ومن كان من دين آخر، فهنالك يشـير القارئ المنصف إلى أولئك المسـلمين، وأنصـار ذلك الدين. ويقول: ههنا يطلق اسـم التسـامح مـع العلم فى حقيقتـه، ههنا يوصف الدين بالكرم والحلـم، ههنا يعرف كيف يتفق الديـن مع المدنية، عـن هؤلاء العلماء الحكماء تؤخـذ فنون الحرية فى النظـر. ومنهم تهبط روح المسـالمة بين العقل والوجـدان (أو بين العقل والقلب) كما يقولون.

يـرى القارئ أنه لم يكن جلاد بـين العلم والدين وإنما بين أهل العلم أو بين أهل الدين شيء من التخالف فى الآراء شأن الأحرار فى الأفكار الذيـن أطلقوا من غل التقييـد، وعوفوا من علة التقليد. ولم يكن يجرى فيما بينهم اللمز بالألقاب فلا يقول أحد منهم لآخر: إنه زنديق أو كافر أو مبتدع أو ما يشـبه ذلك. ولا تتناول أحدًا منهم يدٌ بأذى إلا إذا خرج عـن نظام الجماعـة وطلب الإخلال بأمن العامة فـكان كالعضو المجذم فيقطع ليذهب ضرره عن البدن كله.

○○○

ملازمة العلم للدين وعدوى التعصب فى المسلمين

متى ولع المسـلمون بالتكفير والتفسـيق. ورُمى زيد بأنه مبتدع وعمرو بأنه زنديق؟ أشـرنا فيما سـبق إلى مبدأ هذا المرض ونقول الآن: إن ذلك

بـدأ فيهم عندما بـدأ الضعف فى الدين يظهر بينهم. وأكلت الفتن أهل البصيرة من أهله (تلك الفتن التى كان يثيرها أعداء الدين فى الشرق وفى الغرب لخفض سـلطانه، وتوهين أركانه، وتصدّر للقول فى الدين برأيه مـن لم تمتزج روحـه بروح الدين، وأخذ المسـلمون يظنون أن من البدع فى الدين ما يحسن إحداثه لتعظيم شأنه تقليدًا لمن كان بين أيديهم من الأمم المسيحية وغيرها. وأنشأوا ينسون ماضى الدين ومقالات سلفهم فيه ويكتفون برأى من يرونه من المتصدرين المتعالمين. وتولى شـئون المسلمين جُهالهـم، وقام بإرشـادهم فى الأغلب ضُلاّلهم. فـى أثناء ذلك حدث الغلوُّ فى الدين واسـتعرت نيران العداوات بين النظّار فيه، وسهل على كل منهم لجهله بدينه أن يرمى الآخر بالمروق منه لأدنى سـبب. وكلما ازدادوا جهلاً بدينهم ازدادوا غلوًّا فيه بالباطل ودخل العلم والفكر والنظر (وهى لوازم الدين الإسلامى) فى جملة ما كرهوه، وانقلب عندهم ما كان واجبًا من الدين محظورًا فيه.

لا أكاد أخطـئ القـارئ إذا زعم أن المسـلم إنما اسـتفاد اسـم زندقة وتزنـدق ومتزنـدق وزنديق من فضل ما علّمه جيرانـه إذ كانوا يقولون: هرتقـة وتهرتق وهو هرتوقى أو ما يماثل ذلك. أو زعم أن قد فشـت فى المسـلمين سرعة التكفير بطريق العدوى من أهل الملل المتشدّدة وأن الذى سـهّل سـريان العدوى بتلك السرعة الشـديدة هو ضعف المزاج الدينى عند المسـلمين بجهلهم بأصوله ومقوماته ومتى ضعف المزاج استعد لقبول المرض كما هو معلوم.

إن المسـلمين لما كانوا علماء فى دينهم كانوا علماء الكون وأئمة العالم. أصيبوا بمرض الجهل بدينهم فانهزموا من الوجود وأصبحوا أكلة الآكل

وطُعمة الطاعم، هل وقف الجهل بالمسلمين عند تكفير من يخالفهم فى مسائل الدين أو يذهب مذهب الفلاسفة أو ما يقرب من ذلك؟ لا. بل عدا بهم الجهل على أئمة الدين وخَدَمَةِ السنة والكتاب. فقد حُملت كتب الإمام الغزالى إلى غرناطة وبعدما انتفع بها المسلمون أزمانًا هاج الجهل بأهل تلك المدينة. وانطلقت ألسنة المتعالمين من البربر بتفسيقه وتضليله فجمعت تلك الكتب خصوصًا نسخَ (إحياء علوم الدين) ووضعت فى الشارع العامّ فى المدينة وأحرقت. قال قوم يعدون أنفسهم مسلمين فى ابن تيمية – وهو أعلم الناس بالسنة وأشدهم غيرة على الدين –: إنه ضالٌ مضل. وجاء على أثر هؤلاء مقلدون يملأون أفواههم بهذه الشتائم. وعليهم إثمها وإثم من يقفوهم بها إلى يوم القيامة.

○○○

إهمال آثار السلف وحال علوم الدين وطلابها

أهمل المسلمون علوم دينهم والنظر فى أقوال سلفهم حتى إنك لا تجد اليوم فى أيديهم كتابًا من كتب أبى الحسن الأشعرى ولا أبى منصور الماتريدى. ولا تكاد ترى مؤلفًا من مؤلفات أبى بكر الباقلانى أو أبى إسحاق الإسفرايني. وإذا بحثت عن كتب هؤلاء الأئمة فى مكاتب المسلمين أعياك البحث ولا تكاد تجد نسخة صحيحة من كتاب. كُتبت على القرآن تفاسير كثيرة فى القرن الثالث من الهجرة وما بعده إلى السادس منها تفسير الطبرى وتفسير أبى مسلم الأصفهانى

وتفسير القرطبى وتفسير الجصاص وتفسير الغزالى وتفسير أبى بكر بن العربى وكثير غيرها، وفيها من آراء أولئك الأئمة ووجوه استنباط الحكم والأحكام ما لا غنى لطالب علم الدين عنه. فهل يجد الباحث المجدّ نسخة من هذه الكتب الجليلة يمكن الوثوق بصحتها إلا بطريق المصادفة وحسن الاتفاق؟ وهل يليق بأمة تدعى أنها على دين وأن لها فيه سلفًا صالحًا أن تهجر آثار سلفها وتدع ما كتبوا طعمة للعبث وفراشًا للتراب؟ هل وقع مثل ذلك من المشتغلين باللاهوت المسيحى فى زمن من الأزمان؟

إن حالة طلبة العلوم الدينية الإسلامية أصبحت مما يرثى له فى أكثر بلاد المسلمين فهم لا يقرأون من كتب الكلام إلا مختصرات مما كتب المتأخرون يتعلم أذكاهم منها ما تدل عليه عباراتها، ولا يستطيع أن يتعلم البحث فى أدلتها وتصحيح مقدماتها وتمييز صحيحها من باطلها وإنما يتلقاها كأنها كتاب الله أو كلام نبيه صلى الله عليه وآله وسلم يأخذ ما فيها بالتسليم. فإذا ناظره مناظر فى بعض قضاياها وعجز عن تصحيحه قطع الجدال بقوله: هكذا قالوا، وإن لم يكن القول متفقًا عليه بل قد يكون القول مما لم يقل به سوى صاحب الكتاب الذى اشتغل به وربما كان صاحب الكتاب ممن لو رآه أحد من السلف لم يرضه تلميذًا يعى عنه ما يقول.

كاد ينقطع طلب العلوم الدينية فى سوريا والحجاز وتونس والجزائر وقلّ جدًا فى المغرب الأقصى. ولم يبقَ الاهتمام به إلا فى بعض الصحارى وذلك إما لصعوبة طرق التعليم واقتضائها الزمن الطويل. وحاجات الناس مانعة لهم من إفناء أعمارهم فى عمل لا يسد فى

حاجتهم. وإما لتفضيل الآباء تربية أبنائهم على الطرق الحديثة فى أوربا أو فى المدارس الأخرى وليس فيها من الدين شيء وإن كان فيها شيء منه فهو مما لا يُعد تعليمًا دينيًّا ينظر إليه. وإما للفتور والخمود، الذى نشأ عن التقليد والجمود، وبذلك تجد المسلمين قد تولاهم الجهل بدينهم، وأخذتهم البدع من جميع جوانبهم، وانقطعت الصلة الحقيقية بينهم وبين سلفهم، حتى لو عرض على الجمهور الأعظم منهم ما اتفق عليه السلف من الحكام لأنكروه واستغربوه وعدُّوه بدعة فى الدين وصح فيهم ما قال عمر الخيام فى بعض أشعاره الفارسية مخاطبًا للنبى عليه الصلاة والسلام: (إن الذين جاءوا بعدك زيّنوا لك دينك ووشّوه وزركشوه حتى لو رأيته أنت لأنكرته). فهذا الصنف من المسلمين وهو معظمهم قد أنكر دينه الحق وعاداه ونقم على أهله القائمين بخدمته، وإنما اصطفى لاعتقاده بعض أفراد لم يعرف عن السلف اختصاصهم بالثقة ولم يسمح الدين باختصاصهم بالتقليد. فإذا وقع عن هذا الصنف ما فيه أذى للعلم وأهله فهل يعدّ ذلك واقعًا من دين الإسلام دين محمد صلى الله عليه وسلم، دين القرآن، دين السنة الثابتة، دين الخلفاء الراشدين ومن تبعهم من السلف الأولين؟

○○○

متابعة العلم للإسلام ومباينته لسواه

الحق أقول والحس يؤيدنى: ما عادوا العلم ولا العلم عاداهم إلا من يوم انحرافهم عن دينهم وأخذهم فى الصد عن علمه فكلما بعد عنهم

علم الدين بعد عنهم علم الدنيا وحرموا ثمار العقل وكانوا كلما توسعوا فى العلوم الدينية، توسعوا فى العلوم الكونية، وضربوا الزمان بسوط من العزّة. أما غيرهم فكلما اتصلوا بالدين وجدّوا فى المحافظة عليه أنكرهم العلم وتجهّمهم واكفهرّ وجهه لِلقائهم. وكلما بعدوا من الدين سالمهم العلم وبش فى وجوههم ولذلك يصرحون بأن العلم من ثمار العقل والعقل لا يصح أن يكون له فى الدين عمل، ولا أن يظهر منه فيه أثر. والدين من وجدانات القلب ولا علاقة بين ما يجد القلب وما يكسب العقل فالفصل تامٌّ بين العقل والدين. ولا سبيل إلى الجمع بينهما. سامحهم الله فيما يسمونه تسامحًا مع العلم. وهم يصرحون بأنه عدوه الذى يستحيل أن يكون بينه وبينه سلم.

هل عرفت السبب فى اضطهاد المسلمين للعلم؟ أقول اضطهاد ولا أريد به ما كان عند الأمم المسيحية من الاشتداد فى إبادة أهله، والتنكيل بهم واختراع ضروب التعذيب والتفنن فى صنع آلات الهلاك مع الأخذ بالشبهة. والاكتفاء فى الإعدام بمجرد التهمة. فإن ذلك لم يقع عند المسلمين لا أيام علمهم، ولا فى أزمنة جهلهم. ولكن أريد من الاضطهاد الإعراض عن العلم ورمى الألفاظ السخيفة فى وجوه أهله وقذفهم بشىء من الشتائم مع الابتعاد عنهم. لا ريب أنك قد أيقنت بأن السبب فى هذا الذى يسميه الأديب اضطهادًا إنما هو جهلهم بدينهم. فالدواء الذى ينجح فى شفائهم من الداء لا يكون إلا ردّهم إلى العلم بدينهم والتبصر فيه للوقوف على أسراره والوصول إلى حقيقة ما يدعو إليه. كان الدين واسطة التعارف بينهم وبين العلم فلما ذهبت الواسطة تناكرت النفوس وتبدل الأنس وحشة.

الدعاة فى الإسلام

فهـل قام بينهم دعاة للعلم حقيقيـون، أو دعاة لأصل الدين عارفون، ثم استعصت قلوب المسلمين عليهم، وجمحت نفوسهم عن الانقياد لهم؟ وهـل كثر أولئك الدعاة فى أطراف بلاد المسـلمين كثرتهم فى أوربا من أواسـط القرن السـابع عشر من التاريخ المسيحى إلى أن ظهرت قوة العلم فى أوائل القرن السابع عشر وفيما بعد ذلك؟ لا. إنما رأينا من الصادقين أفرادًا يظهرون متفرقين فى عصور مختلفة ربما لا يجتمع أربعه منهم فما يزيـد فى قرن واحد ويأخذون فى العمل ولما وجّهوا إليه، ثم لا يكادون ينطقون ببعض الكلم فيحس الناس بهم فيأخذ المسـتعد أهبته لمفارقة ما كان عليه واتباعهم حتى تشـعر السياسـة (نعوذ بالله منها) بما عسـى يكون من أمرهم فتخمد أنفاسهم. قبل أن يبلغوا من قلب واحد ما أرادوا مـن غرس أفكارهم، فينطفئ النور، ويَدْلَهِم الدَّيْجُور. فهل يعدّ الأديب هذه الضربات من أيدى أرباب السياسـة اضطهـادًا للعلم لأجل حماية الديـن؟ أنـزّه كل أديب عن أن يظن ذلك وإنمـا هى صدمات تقع على الدين لا تختلف عن أمثالها مما يصيبه منهم مباشرة فلا تعدّ حجة على الدين فى نظر المنصف.

○○○

المقلِّد دون المقلَّد

ربمـا يقـول القائل: إن كان المسـلمون قد أخذوا الجمـود فى التقليد والنفرة من العلم والاعتقاد بالعداوة بين الدنيا والآخرة وبين العقل والدين

ومـا أشـبه ذلك مما هم فيه وورثـوه عن الأمم السـابقة عليهم خصوصًا أقرب الملل إليهم. فما بالهم لم يقلدوا المسيحيين فى الحرص على نشر دينهم والتوسـع فى علومه مذيلاً بما أخذوه عنهم، ولم يقسـموا أنفسهم قسـمين كما قسم المسيحيون إخوانهم قسـمين: قسمًا ينقطع إلى الآخرة فى الأديار والصوامع. وقسـمًا يشـتغل بالدنيا ليقيت نفسه ويقيت أهل القسـم الأول ويحمى نفسه ويحميهم من العدوان؟ وما لك ترى المسلمين خملوا وارتخت أعصابهم وسـئموا النظر فى علوم دينهم كما ذكرت، ثم صـاروا أبعد الناس عن معرفة الطرق لتحصيـل الغنى والثروة. والقبض علـى ناصية القوة وصولجان العزة، وطرحوا أنفسـهم فى تيار من القدر كمـا يقولون، يجرى بهم إلى حيـث لا يعلمون؟ ثم هم مع ذلك أحرص الناس على حياة ؛ وأشـدهم لهفًا على الحطام. فلا ترى الجمهور منهم فى شىء للدين ولا للدنيا فما هذا التناقض؟

فأقـول لـه: إنك قد نسـيت أن المقلِّد إنما ينظر مـن عَمل المقلَّد إلى ظاهـره ولا يدرى سـره ولا ما بنى عليه. فهـو يعمل على غير نظام، ويأخذ الأمر لا على قاعدة. ولذلك سقط المسلمون فى شرٍّ مما كان عليه مقلّدوهم لا سـيما أنهم قد خلطوا فـى التقليد وأضافوا إلى دينهم ما لا يمكـن أن يتفق معـه، فصاروا فى مثل حال المتخبط الذى تَنَازَعُه عدة قوى يذهب مع كل منها آنًا ثم ينتهى أمره بعد الخيبة بالتعب الشديد فيستلقى إلى أن يستريح فينهض إلى العمل على هدًى أو يموت. لما كان المسلمون علماء كانت لهم عينان: عين تنظر إلى الدنيا، والأخرى تنظر إلى الآخرة. فلما طفقوا يقلدون أغمضوا إحدى العينين، وأقذوا الأخرى

بما هو أجنبى عنهم ففقدوا المطلبين ولن يجدوهما إلا بفتح ما أغمضوا وتطهير ما أقذوا.

○○○

الإصلاح والمصلحون

للقائل أن يقول: كيف تدعى أن دعاة العلم والدين قليل بين المسلمين مع أننا نسمع أصواتهم تتلاقى فى جوّ مصر وسوريا وغيرهما من البلاد فى هذه الأيام. كلٌ يقول: دينى ملتى: إسلام مسلمون: قرآن سنة: مجد الإسلام القديم سلفه والصالحون: تعلم تعليم: كتب قديمة كتب جديدة. وما يشاكل ذلك مما يظهر منه أن الداعين إلى العلم أو المنبهين إلى الأخذ بأصول الدين الإسلامى كثيرون ولا ترى مع ذلك من أغلب المسلمين إلا آذانًا صُمًّا وأعينًا عُميًا وصدًّا عما يدعو إليه هؤلاء، ويمكننى أن أقول له: إن الصادق فى هؤلاء ليس بكثير عُدة، والجمهور منهم قَلّما يخلص قصده، وما تجد أكثرهم إلا متجرين بهذه الكلمات لكسب بعض دريهمات: ويظهر لك ذلك من أنهم يلفظون هذه الأسماء وقلما يدرسون شيئًا من مدلولاتها ليقفوا على الحقيقة منه، وإنما يلقف بعضهم عن بعض ظواهر كالزَّبد لا تمكث فى الأرض. أما الصادقون على قلتهم فقد بدأ بعض الناس يسمعون ما يقولون، ويطلبون الرشاد مما يعلمون، خصوصًا فى أمر الدين والجمع بينه وبين مصالح الدنيا لا سيما فى بلاد الهند وبين مسلمى روسيا. ولكن الإصلاح ليس ريحًا تهب فتمسح الأرض من الشرق إلى الغرب فى وقت قريب فانتظر.

قـد يقول القائل: لمَ لمْ يكثر هـؤلاء كثرتهم بين الأوربيين فيما مضى حتى يغلبوا الظالمين من أهل السياسـة ويستميلوا العادلين منهم إليهم. وينهضوا بالمسلمين من هذه الرقدة التى طال أمدها عليهم؟. ولمَ لا يزال أهل البصيرة منهم قليلين متفرقين يهمسـون بالقول ولا يجهرون. وليس للعلـم فيهم دعاة عمليُّون؟ أليس ذلك سـبيلاً لمؤاخذة الإسـلام. وحجة عليـه؟؟ وأقول له: إن حظ المسـلمين لا يصح أن يكون أسـعد من حظ مقلديهم. بل المنتظر أن يكون أتعس وقد أقامت المسـيحية ما يزيد على ألف سنة قبل أن يظهر فيها العلم أو تنشأ الحرية الشخصية، أو تسرى فيهـا الحركة العلمية؛ إلى ما فيه صلاح الجمعية الإنسـانية. مع توالى المنبهات؛ وتواصل الصدمات إثر الصدمات. ولم يمضِ على المسلمين من يوم استحكمت فيهم البدعة وأطبقت عليهم ظلم المحدثات ودخلوا جحر الضب الذى دخله من كان قبلهم إلا أقل من ثمانمائة سـنة. فلم يمض عليهـم وهم فى بدعهم الجديد ذلك الزمن الذى قد يكون عُمرًا لمثل هذه الحالة، ثم تقضى نحبها فى آخره. وما أظن أن يمر على المسـلمين مثل تلك المدة قبل أن يبلغوا من صلاح الدين والدنيا ما هم أهل له.

○○○

الفرق بين التعصبين

وعلى كل حال لا يجوز فى شـريعة الإنصاف أن يذكر المسـلمون فى جانب جمهور المسـيحيين إذا ذكر الغلو فى التعصب الدينى فضلاً عن

أن يقال: إن المسلمين أشد إفراطًا فيه. والشاهد يدلنا على أنه قد يكون للمسلمين فى التعصب ألفاظ وكلمات، ولكن الذى يكون من جمهور المسيحيين إنما هو أعمال وضربات فى المعاملات. وما على طالب الحقيقة إلا أن يسيح بفكره فى المستعمرات الهولاندية فى الشرق ومثل مملكة الترنسفال قبل سقوطها وبلاد الناتال فى الجنوب. ثم يرجع إلى الجزائر وما يليها فى جهة الغرب ليعلم كيف تكون الشدة فى المعاملة مع غير أهل المذاهب المسيحية وكيف يبلغ التعصب من أهله حدًا تنظر إليهم فيه الإنسانية شزرًا ولا تقبل لهم فيه المدنية عُذرًا.

ما على الباحث إلا أن ينظر فيما يكتبه الكتاب الفرنسيون ليعلم أنهم فى حيرة من أمرهم مع المسلمين. يريدون أن تكون لحكومتهم طمأنينة فيما ملكت من بلاد المسلمين ولكن حكومتهم لا تجد السبيل إليها مع ما اتخذته قاعدة لعملها وهو الشدة والإفراط فى القسوة على المسلمين خاصة وحدهم دون سواهم. وأرباب الأقلام يبحثون عن تلك الطمأنينة مع المحافظة على تلك القسوة ويأبى الله أن يعثرهم على ما يبحثون عنه، لأنهم يطلبون الجمع بين الضدين فى موضوع واحد وهو محال كما يقرره فلاسفتهم.

○○○

رأى هانوتو الأخير فى معاملة المسلمين

ميسيو هانوتو أطلق لقلمه من سنوات أن يجرى فى البحث عن طريقة حكم للمسلمين وقاعدة لمعاملتهم فى البلاد التى يحكمها الفرنسيون وجاء

فـى فصول مقاله بما لا يزال يذكره القراء. ثم بعد أن قتل المسـألة علمًا ثلاث سـنين رجع إلى موضوع البحث هذه السـنة بلسان غير الذى كان ينطـق به ورأى غير الذى كان يصدر عنـه. وإنى ذاكر ملخص ما نقلته الجرائـد من خطابه الذى ألقاه فى المجمع الجغرافى فى شـهر مارس من هذه السـنة متعلقًا بأفريقيا، واقتصر منه على ما يتعلق بما نحن فيه وهو بالمعنى: (إن القواعد الجديدة التى يجب أن يكون عليها العمل فى أفريقيـا هى مخالفة للقواعد القديمة التى كانت تجرى عليها السياسـة الاسـتعمارية فيمـا مضى من الزمان. أى: قبل سـاعة وقوف الخطيب لإلقـاء خطابه) ثم بين هذه القواعد الجديدة التى يعامل بها المحكومون فقال: إنها الأمن والسـلم ثم قال: (إننا مدينون لهم بالعدل والسـلم كما أننا مدينون لهم بالتساهل الدينى، ولست أشير إلى هذا الموضوع الخطير الـذى له علاقة بكل ما يثير النفس البشـرية إلا إشـارة خفيفة فأقول: إن التمدن الأوربى يجد فى طريقه فى أفريقيا لا سـيما فى شمالها ذلك الدين القديم العظيم الذى هو دين الإسلام، والذى هو فى هذه الجهات (شمـال أفريقيا) أكثر نشـاطًا منه فى غيرها. وهـذا الدين يدعو إلى إله واحد ويجعل الإيمان بالتوحيد مصدرًا لكل الفضائل الذاتية والاجتماعية ويسـتولى على المؤمن به استيلاءً شديدًا فلا يعود يقدر على التفلت منه، فمن المفروض علينا التسـاهل فى هذا الشـأن بل ليس التسـاهل بكافٍ وحـده، فمن الواجب أن نـدرس هذا الدين ونبـذل جهدنا فى فهمه. وعلينا أن نتخذ الكلمة الإسـلامية ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ سورة البقرة آية ٢٥٦- شعارًا لنا لا نخرج عن حدود معناها. وأن نحترم الدين الإسلامى

ونحميه من كل طارئ سوء. ولا بأس بذكر كلمة للأمير عبد القادر الجزائري في هذا المقام وهي: (إن أصحاب الأديان الثلاثة يشبهون ثلاثة إخوة من ثلاث أمهات).. انتهى محصل كلام هانوتو.

قبل الكلام عليه أسأل القارئ: هل سمع مثل هذه الكلمة ممن يماثل الأمير عبد القادر في نسبه إلى صاحب الرسالة ومقامه في أهل دينه ومكانته من سلامة العقيدة في مذهبه؟ أو سمع ما يقرب منها ممن لا يدانيه من أهل الملل الأخرى؟

ترى هانوتو يرشد أهله إلى اتخاذ سبيل جديد في سياسة المسلمين، وهذا الجديد هو السلم والأمن والتساهل مع المسلمين في أن يستمرُّوا مسلمين واحترام حقوقهم وتركهم يعملون بدينهم. وعَدَّ هذا مبدأً جديدًا لم يسبق الجرى على مثله. وهل تجيب الحكومة الفرنسية طلبه؟ مسألة فيها نظر. فهل يليق بمنصف أن يذكر المسلم إذا ذكر التعصب ما دام في هذا الكون مثل هذه الدرجة منه؟

○○○

سياسة الإنكليز في التسامح

نعم نحن لا ننكر أن بين الأمم الأوربية أمة تعرف كيف تحكم من ليس على دينها، وتعرف كيف تحترم عقائد من تسوسهم وعوائدهم. وهي الأمة الإنكليزية فهي وحدها الأمة المسيحية التي تقدر التسامح حق قدره. لا يصعب علينا أن نقول: إن منشأ ذلك أن أمراءها في الحروب

الصليبية وقوّاد جيشها كانوا من أشد الصليبيين علاقة بسلطان المسلمين وأمراء جيشه. وقد امتاز الإنكليز في ذلك الزمن المظلم بدرس عقائد المسلمين وعاداتهم فحملوا من ذلك شيئًا كثيرًا إلى بلادهم ولم تحجبهم غشاوة التعصب عن إبصار ضوء الحق. وظهر أثر ذلك في أقلام كثير من كتابهم مثل ولترسكوت وشيل وغيرهما قبل أن يظهر في أقلام الكاتبين من غير الإنكليز بأزمان طويلة. فلنا أن نقول: ولا نخشى لائمًا: "إن هذه الخصلة الشريفة - خصلة إطلاق الحرية لأهل الدين يتمتعون بأداء فرائضه مع احترام ما يحترمون - هي من أجلّ الخصال ورثها غير المسلمين عن المسلمين". وهل أجد من يأبى على القول بأن الإسلام السليم من البدع هو أستاذ الإنكليز وعنه أخذوا هذه الخلة؟ ألا ترى أن نظامهم في ذلك يقرب من نظام المسلمين في يوم كانوا مسلمين. يكتفون من الناس بالخضوع للقوانين وأداء ما يفرض عليهم من الضرائب ثم يحفظون نظام العدل بينهم بقدر ما تسمح به السياسة لا يفرقون بين دين ودين. وهكذا كان حال المسلمين. وإن كان ذلك على قاعدة أبر وأرحم.

الخَاتِمَة

فإن قال قائل: أليس لهذا المقال من آخر؟ أليس فى طول الكلام مجلبة الملل، وترويج الكسل. قلت: إنى أوجِّه كلامى هذا إلى أهل النُّهَم إلى الفهم، وأرباب الشره إلى المعرفة. ولا أظن هؤلاء إلا طالبين ما هو أوسع من هذا المقال وأطول منه أضعافًا مضاعفة ؛ لأن الموضوع جليل، والكلام فيه مهما كثر قليل، وأما القارئ الملول، فعقله مدخول، وعزمه مفلول، وفكره مغلول، وهو قصير الهمة فيما يقصر وفيما يطول. فلا ينظر إليه فى الخطاب، ولا يعتد به عند الحساب، ومع ذلك فأنا واقف عند هذا الحد. وأنتظر بتفصيل القول فى مسألة أمراض الإسلام وآثار البدع والمحدثات فيه، والعلل التى نشبت بالمسلمين بسببها فرصة أخرى، وقبل أن أترك القارئ أنبهه إلى أن ما أجمل فى هذه الفصول لم يقصد به الطعن فى حال أحد من الناس ولا طائفة من الطوائف كما يعرفه القارئ نفسه من لباس المعانى، وما يكسوها من الأدب والتنزه عن كل كلمة تشم منها رائحة العيب على آخر. وقد يعلم من هذه النزاهة أن هذا رأى طبخناه لنَطْعَمَه بأنفسنا، وننفق منه على من تلزمنا نفقته من أهلنا، ولم يكن يخطر ببالنا عندما أَجدنَا طَبخه أن نُفيض منه على غيرنا، لكن إذا عَشَا السارى إلى ضوء نارنا، وطلب القرى منَّا قاسمناه ما لدينا، وعرضنا عليه أَحرَّ من نَفَسِ الحياة، وأهنأ من خُلق الأناة إن شاء الله. اهـ

تأثير هذا المقال وتقريظه

يقول جامع هذا الكتاب وناشره: كتب هذا الإمام الكبير مقاله هذا فى أيام معدودات، فجاء كما ترى آية من الآيات البينات؟ ولقد كان لنشره من التأثير فى عالم العلم والدين ما لم نره لكلام أحد من الكاتبين. طارت به اغتباطاً قلوب المسلمين ولم يبخسه حقه فضلاء المسيحيين. ورددت صداه المنعكس عن المنار بعض الجرائد فى مصر وغيرها من الأقطار. قالت جريدة (الوطن) القبطية الغراء بعدما ذكرت انتقاد الجامعة فى عدد ٢٤١٣: "فهب المنار الأغر ينشر بالتوالى ردًّا مفحما طويل الأذيال لإمام تغنى كنيته عن التصريح باسمه ضمنه تفنيد أقوال الجامعة بحجج دامغة قوية يأتى بالواحدة، ثم يعقبها بالشرح والتطويل من التاريخ تارة وأقوال العلماء أخرى ولا يزال المؤيد الأغر حتى الساعة يردد صدى هذه الفصول وإذاعة محتوياتها. والرد كما قلنا قوى الحجج متين العبارة لم يسبق فيه واضعه عالم قديم أوحديث" اهـ المراد منه.

وجاء فى العدد ٣٢٤ من جريدة (المناظر المفيدة) التى تطبع فى سان باولو (البرازيل) وصاحبها من فضلاء السوريين المسيحيين بعد ذكر نقد الجامعة والرد عليه: "وقد طالعنا رده فى مجلة المنار ورأينا فى قسم الرد الثانى أى الكلام على أية الديانتين أكثر تساهلا للعلم حججا حرية بالاعتبار ورأينا أنه من المفيد أن يطلع المسيحى على رأى إمام مسلم عصرى فى المسيحية فاخترنا نقله". ثم طفقت هذه الجريدة تنقل هذا

المقال فصلا فصلا. وقد رأينا فى آخر عدد وصل إلينا منها مقالة وجيزة لأديب مسيحى ذكر فيها انتقاد الجامعة ثم قال: "رد عليها الرجل الإسلامى العصرى بل رجل الإسلام فى هذا الزمان ..... ردًا أثبت به أن الكنيسة المسيحية لم تتساهل قط للعلم والفلسفة فيستطاع أن يقال إن انتصار العلم فى أوربا دليل على كون المسيحية أكثر من الإسلامية تساهلا. ووعد ببيان "لم يصلنا بعدُ" يرجعُ به انتصار العلم فى أوربا إلى أسبابه الحقيقية، فهل أصاب صاحب الجامعة فى جعل تساهل المسيحية سببا لانتصار العلم فى أوربا؟ إذا كانت الكنيسة المسيحية لم تتساهل بل اضطهدت العالم اضطهادا. فالجواب كلا لم يصب صاحب الجامعة. ثم ذكر الكاتب أن سبب القوة والعلم فى أوربا يرجع إلى طبيعة البلاد وما عرض عليها من ضيقها بسكانها إلخ.

وكتب إلينا عالم مسيحى من سوريا. تعتد الجامعة برأيه وتفضله على أقرانه بحق. ما نصه: "ما أسمى ما كتب الإمام فى العددين الأخيرين من المنار. يحق لنا أن نفتخر به المسلمون والنصارى معاً. لا تحصروا الفخر به فيكم أيها المسلمون بل فاسمحوا لنا أن نشارككم كما يشارك البروتستانى الكاثوليكى فى انكلترا بالفخر بأحد علماء بريطانيا. وكتب إلينا غيره بمعنى ذلك وإن كان بعضهم انتقد بعض ما كتب فى النصرانية وقال إن تلك الذنوب للكنيسة لا للدين المسيحى نفسه. ونحن المسلمين نقول بذلك نقول إن الصورة التى انقلبت إليها ديانة المسيح عليه السلام هى التى نشأ عنها ما تقدم ولو ظلت كما جاء بها المسيح لما كان شىء من ذلك.

أما صاحب الجامعة فقد خيب حسن ظننا فيه ولم يرض باعتذارنا عنه بل أصر على طعنه بالإسلام وأضاف إليه الطعن بنا وبالإمام فرددنا عليه فى المنار غير مرة ثم مرت ثلاثة أشهر بعد ذلك وهذا شهر رابع ولم

تصـدر الجامعة فنعلم هل هى مصرة علـى الخصام، أم ثابت إلى الوفاق والوئام الذى هو أولى بها فى دار الإسلام.

ومـن لطيف الاتفاق أنه بعد ما كتب هذا المقال كله ونشـر الكثير منه ظهـر كتاب انكليزى فيه مقالة لكاتب انكليزى اسمه "مسـتر كوربت" يدافع فيه عن الإسـلام ويشهد بفضله فجاء قوله شاهدا لما كتب الكاتب عن تسامح الانكليز وتساهلهم.

ونختم هذا التفريظ بأبيات من قصية لأحمد أفندى الكاشـف الشـاعر المشهور بالإجادة يقرظ بها المقال مخاطبا كاتبه وهى:

سـلاما حجـة الإسـلام فينا ... ورضوانـاً رجـاءَ المسـلمينا
عنيت بما كتبت فـكان وحيا ... يؤيّـد وَحْـىَ مُلهِمـك المبينا
فلـم تـترك لتهـم مكانـا ... يـرى فيـه المزاعـم والظنونا
فما بطلٌ يخوض الحرب فردًا ... فمـا يدعـو بآخـرَ مسـتعينا
جهـاداً فـى سـبيل الله يفدى ... بمهجتـه المواطـن أن تهونـا
بأبقـى منـك آثـاراً وذكـراً ... وقـدراً فـى قلـوب العالَمينـا
وكان يراعـك المنصـور سـيفاً ... وكان كتابـك الـدّرع الحصينا
ملكـتَ بـه معاقـل عاليـا ... نبتْ عنها سـيوف الفاتحينا
وماضـرَّ الضـلالَ الخلق حتى ... نفعتهـم وأوضحـتَ اليقينـا
فرفقـاً بالمكابـر قـد كفـاه ... وَدَعْـه فـى تأملـه عسـاه
مجادلـة وأوشـك أن يدينـا ... يجيئـك باعـتراف المهتدينا
فرفقـا بالمكابـر قـد كفـاه ... مجادلـة وأوشـك أن يدينـا
ودعـه فـى تأملـه عسـاه ... يجيئـك باعـتراف المهتدينا

أحمد الكاشف
بالقرشية